نقد الدين عند فريدريك نيتشه -بين المسيحيّة والإسلام-

د. أحمد الفراك[1]

مُستَخلَص:

استطاع الفيلسوف الألمانيّ فريدريك نيتشه أن يشكِّل لوحده فلسفة نقديّة للدين، لا يزال أثرها قائمًا إلى اليوم، فقد تمكّن، وبدرجة كبيرة من مراجعة نقديّة لفلسفة الدين عمومًا، وللتديّن المسيحيّ على وجه الخصوص، حيث انتقد المسيحيّة بجرأة نادرة، وطرح تساؤلات لم تجد لها أجوبة مُقنعة في حينها من طرف رجال الدين الذين نشأ بينهم وتربّى على أيديهم، فتأجّجت وازداد لهيبها لتحرق تمتمات الكهنة التي لم تعد تقنع أحدًا يفكِّر ويتأمّل! ومن المسيحية عمَّم نيتشه نقده للدين أيًّا كان، غير أنّه وقف وقفة احترام للإسلام وللحضارة الإسلاميّة.

وتأتي هذه المقالة لتبيّن معالم المنهج النقديّ للدين عند نيتشه بشكل عام، وتتبّع المنهجيّة النقديّة التي استعملها في مواجهته للفكر المسيحيّ، وانتقاء أهمّ الاعتراضات التي سجّلها ضد أصول المسيحيّة العقديّة ومبادئها الأخلاقيّة، كما تحاول إبراز موقفه من الإسلام ومن حضارته؛ باعتباره دينًا مخالفًا للديانة المسيحيّة في بعض الاعتقادات والتأويلات المرتبطة بها.

(1) باحث في الفكر الإسلاميّ، وأستاذ الفلسفة في جامعة عبد المالك السعديّ، تطوان - المغرب.

كلمات مفتاحيّة:

نيتشه، فلسفة الدين، نقد الدين، نقد المسيحيّة، التديّن المسيحيّ، الدين الكهنوتي، موت الإله، عدوّ المسيح، نيتشه والإسلام.

مقدّمة:

يؤكّد تاريخ العلم أن الدّين كان حاضرًا في جميع الثقافات البشريّة على مرّ التاريخ، غير أنّ ارتباط قصّة الدين بقصّة الإنسان[1] لا يفيد أنّ الإنسان كائنٌ متديّن بإطلاق، كما لا يفيد نجاح رجال الدين باستمرار في تبليغ رسالة الإيمان والشريعة صافيّة، يتلقّاها الناس بالقبول ونيّة التطبيق، بل اختلف الناس حول الدين، وتعدّدت التفسيرات الدينيّة لقضايا الألوهيّة والنبوّة والمصير، واختلفت المدارس العقديّة والمذاهب الفقهيّة. وتعرّفت الأجيال اللاحقة على الدّين من خلال تديُّن الأجيال السابقة، ومع مرور الزمن استحال التديُّن دينًا، وانقلبت الفروع أصولًا، واحتدمت المعارك الكلاميّة بين الفرق والمذاهب، وتحوّلت المناظرات الفكريّة أحيانًا إلى حروب استئصاليّة يقتل فيها الإنسان أخاه الإنسان باسم الدين!

أمام هذا الوضع المعقّد ظهرت أفكار نقديّة تُراجع مسلّمات التديّن وتنتصر لإنسانيّة الإنسان ضدّ الفهم الكهنوتي المغلق للحياة والموت والأخلاق، ولعلّ من أهمّ هذه الأفكار النقديّة ما تحمله كتابات الفيلسوف الألمانيّ فريدريك نيتشه في القرن التاسع عشر، وهو يراجع مراجعة نقديّة فلسفة الدين عمومًا؛ والتديّن المسيحيّ على وجه الخصوص، حيث انتقد المسيحيّة بجرأة كبيرة، وطرح تساؤلات لم تجد لها أجوبة مُقنعة في حينها من طرف رجال الدين الذين نشأ بينهم وتربّى على أيديهم، فتأجّجت وازداد لهيبها لتحرق تمتمات الكهنة التي لم تعد تقنع أحدًا يفكّر ويتأمّل. ومن المسيحيّة عمّم نيتشه نقده للدين أيًّا كان، غير أنّه وقف وقفة احترام للإسلام وللحضارة الإسلاميّة. فما هي معالم المنهج النقديّ للدين عند نيتشه؟ وما هي أهمّ الانتقادات التي وجّهها للمسيحية؟ وما موقفه من الإسلام؟

(1) انظر: النشّار، علي سامي: نشأة الدين: النظريّات التطوّريّة والمؤلِّهة، لا ط، القاهرة، مكتبة الخانجي، لا ت، ص9.

أولًا: نيتشه والتربيّة المسيحيّة:

ولد نيتشه من قسٍّ بولنديّ الأصل مُشبع بالعقيدة المسيحيّة البروتستانتيّة، ورثها عن آبائه وأجداده القساوسة، هو «**كارل لدفج نيتشه**»، ومن أُم ألمانيّة؛ هي «**فِرَنْسِسكا إيلَر**»، فتأثّر بأبويه المتديّنين في طفولته حتّى كان يُلقَّب بـ«**القسّيس الصغير**»؛ لما ظهر عليه من علامات التديّن والذكاء، إضافة إلى صوته الجميل في ترديده لبعض الآيات من الأناجيل، حيث كان يُبكي المستمعين له، بلغ تديُّنه، كما اعترف هو بنفسه، حدّ أنّه كان في صغره يشعر وكأنّه يرى الله، حيث يقول في هذا الصدد: «**في سنّ الثانية عشرة رأيت الله في تمام جلاله**»، وفي مرحلة دراسته الثانويّة (1858-1864م) ألَّف قصيدة رائعة وجّهها إلى «**الله المجهول**»، حيث قال:

«مرة أخرى، وقبل أن استمرّ في طريقي..

وأطلق نظراتي إلى الأمام..

أرفع يدي العاريتين..

إليك، فأنت ملجأي وملاذي..

وأنت الذي كرَّست له أعمق أعماق قلبي..

مذابح يُقدَّس عليها اسمك..

لكي يدعوني صوتك..

دائمًا إليك..

وعلى هذه المذابح تتلألأ..

هذه الكلمة: إلى الله المجهول..

إنّي أريد أن أعرفك أيّها المجهول..

أنت يا من نفذت إلى صميم روحي..

ويا من تمرّ على حياتي مرور العاصفة..

أنت يا من لا يدركك شيء، ومع هذا فأنت قريب منّي وذو نسب إليَّ

أريد أن أعرفك وبنفسي أنْ أعبدك»[1].

نرى من خلال هذه القصيدة حيرة نيتشه وسؤاله العميق عن الله وعن الدين الذي كرّس له حياته، فهو من جهة يُظهر يقينه بوجود ربّه وحاجته إليه في الآن وفي المصير، كما يصرّح من جهة ثانية بجهله وقصوره عن إدراكه، يناديه منادٍ من أعماقه ببدهيّة الخالق وقربه من الإنسان، وينتقد بقوّة واقع التديّن الكهنوتي الذي يجعل من الإنسان كائنًا فاجرًا وظالمًا باسم الله والدين؛ فـ«**مذابح يُقدَّس عليها اسمك**» تجعلنا نسأل ما نسبة هؤلاء القتلة للربّ؟ أيرضيه الإفساد باسمه؟

ثانيًا: نيتشه ونقد المسيحيّة:

قرأ نيتشه في سنّ الثامنة عشر عن الفيلسوف آرثر، فتأثّر بفلسفته أيّما تأثّر، حيث وجد عنده أجوبة عن أسئلته المقلقة المحرقة، فانقلب رأسًا على عقب، من مسيحيّ متخلّق إلى مُعادٍ للمسيحيّة وأخلاقها، فما أنْ انتهى من كتاب أرتور شوبنهاور[2] «**العالم كإرادة وفكرة**» حتّى قطع مع الماضي، وبدأ حياة جديدة بنظرة مناقضة تمامًا. قال عن كتاب شوبنهاور الآنف: «مرآة طالعتُ فيها العالم والحياة، بل وطبيعة نفسي مرسومة في جلال مخيف.. إنّه ليبدو لي أنّ شوبنهاور كان يخاطبني أنا، لقد أحسست فيه شعوره المتحمّس وخيّل إليَّ أنّي أشهده ماثلًا أمامي في كلّ سطر؛

(1) بدوي، عبد الرحمن: نيتشه، ط1، القاهرة، مكتبة النهضة المصريّة، 1939م، ص31-32.

(2) أرتور، شوبنهاور (1788 – 1860) Arthur Schopenhauer فيلسوف ألمانيّ، معروف بفلسفته التشاؤميّة.

كأنما يناديني نداءً صارخًا أن أنهض لإنكاره وتفنيده»[1]، حتّى أنّه عدّ نفسه خليفة له وصديقًا لتلميذه الموسيقار فاجنر.

تخلّى نيتشه عن مشاعر صباه الطيّبة وتَشيطن فجأة، فانتقد الإله في عقيدة الشعب المختار؛ لمّا رأى العُبَّاد والزُّهاد يختبؤون في الزوايا والمغارات والمفاوز، ويتحدّثون باسم الإله ونيابة عنه، فنعت إله الكهنة بأنّه إله الأماكن المظلمة والمهجورة، وأنّه لا حاجة للإنسان بالاعتقاد في وجود إلهٍ لا يستطيع الانتقام ولا الحرب والتدمير، ويحرّض الناس على التخلّي عن أنفتهم وقوَّتهم ويشجّع فيهم الاستسلام وعدم تحمّل مسؤوليّة الحياة بقوّة[2]. كما وجّه مضمون كتابه «**هكذا تكلّم زرادشت**» الذي ألّفه في السنة التي توفّي فيها كارل ماركس (ت: 1883م) نحو العقيدة المسيحيّة يسخر من تديّن رجالها، ويدعوهم إلى التخلّص من الاعتقاد المسيحيّ المهين للإنسان، وإبداله باعتقاد جديد في الإنسان الأعلى «**السوبرمان**»، حتّى قيل إنّ هذا الكتاب هو بمثابة إنجيل خامس يضاف إلى الأناجيل الأربعة المشهورة، حيث وجَّه نقدًا جذريًّا واضحًا لعقيدة بولس وتلاميذه، وما أضافه من نصوص وشروح وهوامش.

هذا الفيلسوف المشهور بقصر قامته وطول لسانه هاجم الدين الذي عرفه من رجال الكنيسة؛ بوصفه مخدّرًا؛ كالخمر، منقلبًا عليه؛ وهو أستاذ اللاهوت والفيلولوجيا[3] في الجامعة في مدينتَي بون وليبستج على التوالي، هذا الذي قيل عنه إنّه «كان مؤدّبًا كلّ الأدب، رقيقًا رقّة تقرب من رقّة النساء، هادئ المزاج، ساكن الضمير، متّصل الوقار»[4]، هو الذي نعت المسيحيّة بـ«اللعنة الكبرى»، و«الوصمة الخالدة في جبين البشريّة«

(1) رمسيس، عوض: ملحدون محدثون ومعاصرون، ط1، القاهرة، مؤسّسة الانتشار العربيّ، 1998م، ص18.

(2) انظر: نيتشه، عدوّ المسيح، م.س، ص52-57.

(3) الفيلولوجيا فرع من فروع علم اللغة التي تركّز على مقارنة اللغات لتحديد الصلة التاريخيّة بينها؛ مثل: القرابة الوراثيّة، والأصل المشترك للغة، ...

(4) بدوي، نيتشه، م.س، ص41-42.

و«الفساد الأكبر»، واعتبرها المسؤولة عن «الجريمة الكبرى ضدّ الحياة»[1]، فالكلمات «المغالطة؛ مثل: الخطأ والخطيئة وعدم العصمة والهلاك الأبديّ وعذاب النار، كان الهدف من ذلك هو جعل المرضى مسالمين قدر الإمكان، دفع المصابين (المتديّنين) بالأمراض المزمنة إلى إبادة أنفسهم»[2]، في مقابل ذلك فـ«الإنسان الحرّ ينبغي أن يعترف بأنّ الربّ قد مات، ومن ثمّ لا يتّجه سعيه إليه، وإنّما إلى نوع أعلى من الإنسان»[3]؛ كما وصف ذبيحة الصليب بالوثنيّة والبربريّة، وانتقد أخلاق التديّن المسيحيّ في أغلب كتبه؛ مثل: «**العلم المرح**»، و«**جينيالوجيا الأخلاق**»، و«**أفول الأصنام**»، و«**عدوّ المسيح**»، و«**ما وراء الخير والشرّ**»، ... ووصفها بأنّها «**أخلاق العبيد**»، و«**أخلاق القطيع**»، والجبناء والمرضى والمنحطين، والتاريخ المقدّس هو «**تاريخ ملعون**»، ومقولة (الله، الروح، النفس) هي مجرّد علوم طبيعيّة خياليّة، وعالم الآخرة هو عالم الأوهام والأحلام!

أمّا «**موت الإله**» في فلسفة نيتشه فهو تعبير غامضٌ تعدّدت تأويلاته، بين الإلحاد وإنكار الاعتقاد بالآخرة وما فيها من جزاء، ونجد لذلك سندًا في أقواله؛ من قبيل: «أن نُخرِّف عن عالم آخر غير عالمنا مسألة لا معنى لها»[4]، وإنْ كان ينمّ في نظرنا عن عزلته الأنطولوجيّة وحنقه الشديد على التديّن المنحرف الذي عايشه، والاعتقاد الخاطئ الذي لُقّنه من جهة، وعلى عُمق الفكرة الدينيّة في ذهنه من جهة ثانية؛ لعدم قدرته على التخلّي عن الإله والدين والاعتقاد ولو نظريًّا، فقد كان دائم الذكر لاسم الإله والدين، باحثًا عن اطمئنان روحيّ وفكريّ يزيل كآبته وضنكه، وقبيل جنونه كتب

(1) انظر: الفراك، أحمد: فلسفة المشترك الإنسانيّ بين المسلمين والغرب، بحث في العوائق المنهجيّة والمعرفيّة، ط1، المغرب، أفريقيا الشرق، 2016م، ص120.

(2) فريدريك، نيتشه: جينيالوجيا الأخلاق، ترجمة: محمد الناجي، المغرب، أفريقيا الشرق، 2004م، ص114.

(3) برتراند، راسل: حكمة الغرب، ترجمة: فؤاد زكريا، ط2، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، 2009م، ج2، ص176.

(4) فريدريك، نيتشه: أفول الأصنام، ترجمة: محمد الناجي؛ حسان بورقية، ط1، المغرب، أفريقيا الشرق، 1996م، ص31.

لأخته متألّمًا يقول: «**أوّاه! لم يبقَ لي صديق ولا من إله**»[1]، وإنْ ظلّ في أواخر حياته؛ ونتيجة إحساسه بتعاليه، يقول عن نفسه أحيانًا أنّه هو الربّ الجديد أو المصلوب أو غير ذلك.

ولمّا سُئِل عن عبارته «**موت الإله**» أجاب بأنّ الإله مات ليطمئنّ الأشرار الذي يخافون من عقابه. وفي اطمئنان الأشرار؛ وكأنّه يومئ إلى موت الخير وموت الإنسان نفسه مع موت الإله، يقول ميشال فوكو: «وصل نيتشه إلى النقطة التي عندها يمتلك الإنسان والله بعضهما، حيث يكون موت الأوّل مرادفًا لموت الثاني، وحيث إنّ الوعد بالإنسان الأسمى يعني، أولًا وقبل كلّ شيء حتميّة موت الإنسان الوشيك»[2]، بل حتّى في سنوات جنونه كان يرتاد الكنائس ويردّد الأناشيد ويبكي فقد الإله[3]؛ وكأنّه يبحث عن الخلاص في غير المسيحيّة، أثناء رحلة جنونه خلال اثني عشرة سنة لم يتسامح مع رجال الدين، وإلى الرمق الأخير، حيث طلب من أخته أنْ تمنع القساوسة من حضور وفاته، قائلًا لها: «لا تسمحي لقسّيس أو غيره أن ينطق الأباطيل بجانب قبري في وقت لا أستطيع أن أدافع فيه عن نفسي. إنّني أريد أن أهبط إلى قبري وثنيًّا شريفًا»[4]، إلى أنْ مات مجنونًا في غشت 1900م.

ثالثًا: نيتشه «عدوّ المسيح»:

يظهر نيتشه عداوته للتصوّر اللاهوتيّ المسيحيّ بشكل أكثر في كتابه «**عدوّ المسيح**»، ويستأنف نقده بشدّة للعقيدة المسيحيّة من أربعة أوجه؛ هي:

(1) سلامة، بولس: الصراع في الوجود، ط1، القاهرة، دار المعارف، 1952م، ص218.
(2) فوكو، ميشال: الكلمات والأشياء، ترجمة: مطاع صفدي؛ وآخرون، بيروت، مركز الإنماء القومي، 1990م، ص281.
(3) انظر: رمسيس، ملحدون محدثون ومعاصرون، م.س، ص20.
(4) م.ن، ص.ن.

1. **نقد أصول العقيدة:** حيث ينتقد نيتشه أصول العقيدة المسيحيّة[1]؛ من قبيل: «**الله**»، و«**الدين**»، و«**الحياة**»، فالله في المسيحيّة -حسب نيتشه- إله المرضى والفاشلين والكهنة، و«الكاهن يسيء استعمال اسم الله ويدنّسه، يدعو مملكة الله حالة الأشياء، حيث يقرّر هو قيمتها، وإرادة الله تلك الوسائل التي بها يحصل ويحتفظ بتلك الحالة»[2]؛ أي أنّ الكاهن يقرن إرادة الله بإرادته ومغفرة الله بطاعته (أي بطاعة الكاهن)، والدين هو الخضوع والرهبنة والتملّق والكذب والتوهّم، والتصديق بلا عقل بقصّة «**الله معلّق على الصليب**»! والحياة هي السطو على الغير والقابليّة للاستضعاف باسم العقيدة. يقول نيتشه «في مفهوم الله تُعلن وتُداع العداوة للحياة وللطبيعة»[3]، حتى اعتبر أنّ «البوذية أفضل مائة مرّة من المسيحيّة»[4].

2. **نقد القيم الأخلاقيّة المسيحيّة:** يعيب على المسيحيّة محاربتها للقيم الإنسانيّة النبيلة وتنقيصها من قيمة الحياة، وإباحتها الكذب والقتل والتدمير، يقول بهذا الصدد: «لقد انحازت المسيحيّة إلى كلّ ضعيفٍ ومنحطٍّ وفاشل، وشكّلت من مناهضتها لغرائز التشبّث بالحياة المفعمة مثالًا»[5]، وسترت غرائزها الفجّة بإيمان شكليّ تُقدّمه مِثل فيتو ضدّ العلم.

3. **نقد بُعدها عن الواقع:** ينتقد نيتشه المسيحيّة -أيضًا- من حيث بُعدها عن الواقع الذي يعيشه الإنسان ويطمح إليه، بل يكره كُرهها الغريزيّ للواقع؛ بقوله «لا الأخلاق ولا الدين في المسيحيّة يلامسان الواقع في أيّة نقطة»[6].

(1) نيتشه، عدوّ المسيح، م.س، ص58.
(2) م.ن، ص78.
(3) م.ن، ص58.
(4) م.ن، ص60.
(5) م.ن، ص28.
(6) م.ن، ص49.

4. **نقد تبعيّتها لليهوديّة:** فالمسيحيّة مُشبعة في نظر نيتشه بالعقيدة اليهوديّة، حيث يعتبرها نتيجتها الحتميّة ومنطقها الهيّاب[1]، مستدلًا بما ورد في إنجيل يوحنا من أنّ «**الخلاص يأتي من اليهود**»[2]، وبأحداث التاريخ اليهوديّ وأخلاق اليهود المنحطّة؛ حتّى استنتج أنّ «اليهود هم الشعب الأكثر شؤمًا في التاريخ»[3]، فقد قلبوا القيم لذواتهم وأداروها لصالحهم.

رابعًا: نيتشه واحترام الإسلام وحضارته:

على الرغم من انتقاد نيتشه للدين واستوائه مُلحدًا وثوريًّا كبيرًا في نظر كثير ممّن درسوا تراثه الفلسفيّ، وعلى الرغم من تصريحه بأنّ «الدِّين لم يحتو على حقيقة أبدًا، لا بشكل مباشر أو غير مباشر، لا على شكل ركن من أركانه، ولا على شكل حكمة؛ لأنّ الدين إنّما يولد من الخوف ومن الحاجة، وقد انسلّ إلى داخل الوجود من خلال سبل العقل التائه»[4]، غير أنّه قدّم موقفًا من الإسلام مخالفًا لموقفه من المسيحيّة واليهوديّة. فكيف تعرَّف على الإسلام؟ وكيف نظر إلى حضارة المسلمين؟

في الغالب لم يطّلع نيتشه على الإسلام من مصادره الأصليّة (القرآن والنبوّة)؛ وإنّما تعرّف عليه بواسطة، عن طريق يوليوس فلهاوزن (J. WELLHAUSEN) صاحب «**الدولة العربيّة**» الذي أرّخ للفترة بين البعثة النبويّة إلى نهاية الدولة الأمويّة، ومن خلال اطّلاعه على حضارة الأندلس في الغرب الإسلاميّ، وتاريخ المسلمين عمومًا وموقفهم من بعض القضايا الإنسانيّة؛ باعتباره كان مهتمًّا بتاريخ الأفكار وجينيالوجيا المفاهيم. لكنّه قدّم موقفًا أوضح من فريديرك هيجل الذي توقّف الدين عنده مع

(1) انظر: نيتشه، عدوّ المسيح، م.س، ص71.
(2) يوحنا، 4: 22.
(3) نيتشه، عدوّ المسيح، م.س، ص72.
(4) - فريديريك، نيتشه. إنساني مفرط في إنسانيته، كتاب العقول الحرة، ترجمة محمد الناجي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط 1، 2002، 75/1

المسيحيّة، وأقرب إلى الموضوعيّة من مواطنه أُسفلد شبتغلر[1] الذي اتّهم الإسلام من غير دراسته!

والكتابات التي تناولت موقف نيتشه من الإسلام قليلة جدًّا، على خلاف تلك التي خاضت في موضوع نقده للعقيدة المسيحيّة والأخلاق المسيحيّة، ومن الكتب الحديثة في الموضوع نجد كتاب «**نيتشه والإسلام**»[2] للبريطاني «**روي جاكسون**»؛ وهو محاضر في الفلسفة والدين، حيث بيَّن فيه جزئيًّا كيف كان نيتشه متسامحًا تجاه التراث الإسلاميّ، ومنتقدًا حاقدًا على التراث المسيحيّ؟ كما حاول إبراز مركزيّة الدين في موقف نيتشه من قضايا؛ مثل: الفلسفة الأخلاقيّة والسياسيّة؟ وكيف يمكن لرؤية نيتشه المميّزة وميتودولوجيّته أن تساعدنا على فهم الإسلام اليوم؟ غير أنّ العنوان في نظري كان مضلِّلًا؛ لأنّه لم يكن وفيًّا لموضوعه.

على خلاف ذلك يُثني نيتشه على الحضارة الإسلاميّة العربيّة القديمة في مواضع عدّة من كتبه، من غير أن يفيد ذلك تفصيله القول في مزايا الإسلام العقديّة أو التشريعيّة أو غير ذلك، فهو يرفض الدين الكهنوتي في جميع صوره، ويرفض فيه ما يسمّيه بـ«**الكذبة المقدّسة**» الشائعة في جميع الأديان. مع استثناء قد لا يصدّقه قرّاء نيتشه؛ وهو ما ورد في كتاب «**عدوّ المسيح**» من تمجيد للإسلام؛ بقوله: «**الإسلام عند احتقاره المسيحيّة يمتلك ألف مرّة الحق بأنْ يفعل ذلك: إنّ الإسلام يتطلّب الرجال**»[3]، فماذا يعني نيتشه بالرجال؟ وبحاجة الإسلام إلى رجال؟ وأنّ الإسلام كان له رجال؟

(1) Oswald Spengler (1880-1936م) فيلسوف ألمانيّ معاصر، من مؤلّفاته «اضمحلال الغرب» الذي صدر عام 1922م، وهو الذي تحدّث عمّا يسمّيه بـ«الإسلام السحريّ».

(2) روى، جاكسون: نيتشه والإسلام، ترجمة: حمود حمود، ط1، بيروت، دار جداول، 2014م.

(3) نيتشه، عدوّ المسيح، م.س، ص179.

عندما ينعت نيتشه قادة الحركة المسيحيّة بـ«**اللارجال**»، نفهم أنّه يقصد برجال الإسلام قادته، فكما أنّ المسيحية انحرفت مع رجال الدين والكهنة؛ وعلى رأسهم[1] بولس، ارتقى الإسلام مع قادته العظام (الرجال)، وهنا تبرز فطنة نيتشه في تمييزه بين «**مُعتقدَين**»؛ مُعتقَد خانه رجاله واستعملوه في حماية كهنوتهم وكذبهم المقدّس، ومُعتقَد حمله رجاله خُلقًا إنسانيًّا رفيعًا في العالمين. ومن وراء ذلك يؤكّد نيتشه أنّ الدين يحتاج إلى رجولة خاصّة تحمل رسالته إلى العالم؛ من غير انسداد ولا استبداد، وبلا تحريف ولا تخريف.

ويستأنف القول: «لقد حرمتنا المسيحيّة من مجاني (حصاد) الثقافة القديمة، وبعد ذلك حرمتنا أيضًا من ثمار حضارة الإسلام. العالم الغرائبي لحضارة العرب في إسبانيا، والذي هو في الأساس أكثر قربًا إلينا من روما واليونان، والذي يتناسب أكثر مع شعورنا وذوقنا، قد غُمر -ولست أقول بأيّة أقدام- لماذا؟ لأنّه صدر لأنّه دان بمولده لغرائز أرستقراطيّة، لغرائز رجوليّة، لأنّه أكّد الحياة بما فيه من الغنى الناذر والمهذَّب للحياة الأندلسيّة»[2]، وأضاف «العالم الرائع للأندلسيّين قد غُمر فحُرمت منه أوربا»[3]، وانتقد الحروب الصليبيّة بشدّة ونعت الصليبيّين بالمتخلّفين والفقراء، حيث قال: «الصليبيّون حاربوا في زمن آخر ضدّ أمرٍ كان عليهم أن يرتموا أمامه فوق التراب: حضارة تجاهها حتّى قرننا التاسع عشر يبدو بالغ الفقر! بالغ التأخّر!... بمساعدة السيوف الجرمانيّة وبالدم والشجاعة الجرمانيّة، أقامت الكنيسة حربًا مستميتة ضدّ كلّ نبالة موجودة فوق الأرض، وحول هذه النقطة ثمّة مقدار من الأسئلة المؤلمة...»[4].

(1) يقصد القديس بولس أو بولس الطرسوسيّ، كان يهوديًّا ثمّ تحوّل قائدًا مسيحيًّا، أضاف الكثير من النصوص إلى العهد الجديد.
(2) نيتشه، عدوّ المسيح، م.س، ص179-180.
(3) م.ن، ص.ن.
(4) م.ن، ص180.

نيتشه ينتصر للإسلام والمسلمين:

وهو ينتقد الكنيسة يستحضر نيتشه نظافة الحضارة الإسلاميّة في الأندلس، فيقول: «الكنيسة تقاوم حتّى النظافة؛ لأنّ المعيار الأوّل على المسيحيّة بعد طرد المسلمين من الأندلس، كان إغلاق الحمّامات العامّة التي كانت قرطبة وحدها تملك 270 حمامًا»[1]، ويضيف مقارنًا: «لم يكن ثمّة شكوك في الاتّجاه الذي اتّخذ، لا بين الإسلام والمسيحيّة، ولا بالأولى بين عربيّ ويهوديّ. القرار قد اتُّخذ[2]: هنا، ولا أحد هنا حرّ في اختياره. فإمّا أن يكون شندالًا (TCHANDALA) (الطبقة السفلى)، وإمّا ألا يكون شندالًا. «حرب بلا هوادة على روما! سلام وصداقة مع الإسلام»، هكذا فكّر، وهكذا فعل ذلك الروح الكبير الحرّ، العبقريّ بين الأباطرة الألمان، فريدرك الثاني»[3].

إذا كان «منطق الحياة لدى نيتشه يرفض الجود والسكون والركون إلى الحلول الجاهزة التي اقترحتها الفلسفات المثاليّة والميتافيزيقيّة والأديان السائدة»[4]، فإنّه لا يتقبّل أن يظلّ الألمان في نظره أسيري عقيدة الكهنة، بل عليهم أن يتحرّروا منها، ويتصالحوا مع الإسلام، ويدخلوا في صداقة مع المسلمين الذين آذوهم في حروبهم باسم الرب و«**العقيدة المقدّسة**». فلا يسمح بخيار غير إحداث قطيعة كُلّيّة مع كنائس روما المسيحيّة التي تتحالف مع كلّ النبلاء والأرذلين؛ كي تحارب الحضارات الأخرى؛ ومنها الحضارة الشرقيّة (الأندلس) وتعتدي عليها؛ من أجل المال، حيث كان الشرق غنيًّا وأوربا فقيرة. هذا ما يفكّر فيه ويعمل من أجله فريدريك نيتشه؛ حسب ما يُفهَم من تصريحه. وكأنّه كان يدعو -بكلمة واحدة- الشعب الألمانيّ إلى التخلّي عن المسيحيّة المحرّفة واعتناق الإسلام.

(1) نيتشه، عدوّ المسيح، م.س، ص65.
(2) يقصد ما ورد في النصّ السابق.
(3) م.ن، ص181.
(4) نبيل، عبد اللطيف: فلسفة القيم نماذج نيتشوية، ط1، القاهرة، دار التنوير للطباعة والنشر، 2010م، ص9.

خاتمة:

نستنتج ممّا تقدّم أنّ الفلسفة الألمانيّة خلال القرن التاسع عشر كانت مُشبعة بموضوع الدين وقضاياه الكبرى، كما أنّها في الغالب رفضت بفطرتها وتجاربها وما راكمته في تاريخها أخلاق التديّن المسيحيّ في صيغتها الوصوليّة، ومعها أغلب الاعتقادات صحيحة كانت أو غير صحيحة، من دون حمل الموقف نفسه من دين الإسلام، حيث لم يطّلع عليه نيتشه من مصادره الأصليّة. ولقد حاول نيتشه من جهته صناعة تديّن جديد يتجاوز السقوط الأخلاقيّ والإنسانيّ للدّين المسيحيّ، ولعلّه يستبشر بنباهة الفيلسوف قيام دورة دينيّة جديدة تنسجم مع روح الدين، وتلامس جوهر إنسانيّة الإنسان، وتجيب عن أسئلته المقلقة، فقد كان معجبًا بالحضارة الإسلاميّة، وبالديانة البوذيّة؛ مقارنة مع الديانة المسيحيّة التي ألصق بها كلّ الرذائل.

انتقد نيتشه الدين؛ باعتباره مُخدّرًا يكسر عنفوان الإنسان، ويقيّد شموخ نفسه، ويغيّر فطرته، غير أنّه لم يضمن الخلاص لنفوس تمرّدت على الدّين ولم تملأ فراغاته الروحيّة.. انتقد الدين الاجتماعيّ والاقتصاديّ والسياسيّ والأخلاقيّ، غير أنّه لم يستطيع نقد الدين نقدًا فلسفيًّا ميتافيزيقيًّا.